مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 9، العدد 36 (خريف 1998)، ص 172

باب الشمس (رواية)

الياس خوري
بيروت: دار الآداب، 1998.
527 صفحة.

لو كان في استطاعة يونس أن يحكي، لقال: إنه المؤقت! هذا هو الرد الملائم على سؤال الدكتور خليل: كيف استطعتم تحمل ما جرى لكم؟ أو: كيف قمتم بسد ثقوب الأيام؟

على هذا "المؤقت" يبني الياس خوري روايته الجديدة "باب الشمس". فكل ما جرى بعد سنة 1948 للفلسطينيين يطلع من رحم المؤقت، وينجدل به، ويمتزج بنكهته.. فالساعة التي تحتفظ بها جدة الدكتور خليل كانت متوقفة منذ خروجها من قريتها، كأن الجدة ترفض احتساب الزمن، أو التعامل مع الزمن الذي ستمضيه خارج الوطن.. ويونس يؤكد: "أنا هو الرجل الوحيد في العالم الذي يعيش في حقيبته. كل مقتنياتي أضعها في حقيبة تنتقل معي أينما ذهبت." والدكتور خليل يقول ليونس: "أعرف جوابك، وأعرف أنك ستقول إنه المؤقت. عشتم المؤقت، وكان المؤقت وسيلتكم للتفاهم مع الحياة." وبعد عدوان سنة 1982 على بيروت، يقول يونس لخليل: "هذه ليست النهاية، كان هناك نهاية واحدة وتجاوزناها، فبعد الذي جرى عام 1948 لن تكون نهاية. يومها كانت النهاية يا ابني ولم ننته، ما يجري الآن ليس سوى مراحل، وكل شيء يمكن أن يتغير ويتشقلب.." وخليل يقول: "لكن، أين نجد الخلاص؟

هو المؤقت.. وبه لم يعد التاريخ الفلسطيني تاريخاً عادياً، ولم يعد الزمن الفلسطيني مجرد وقت يتراكم فوق الآخر، ويمحو ما كان.. فيونس، محور الرواية، ممدد

على سريره في مستشفى الجليل في مخيم شاتيلا، في منزلة بين الحياة والموت.. حياة مؤقتة، تماماً كما عاش منذ النكبة.. يخرج من عين الزيتون ليعود إليها، ثم يخرج ليعود إلى شَعَب. يحتلها ليخرج منها.. يذهب إلى لبنان ليعود إلى فلسطين. يذهب إلى باب الشمس ليعود إلى لبنان، والآخرون كذلك.. يفردون حراماً صوفياً على أغصان شجرة الزيتون ليصنعوا مأوى مؤقتاً في انتظار عودتهم، ثم يتجهون شمالاً، ويتطور المأوى ليصبح خيمة ثمر"براكية" ثم تأتي الثورة لتؤكد أن هذا كله "مؤقت"!!

هل هذا تأريخ؟ لا.. فالروائي هنا لا يؤرخ. حتى لو كان الأعداء هم الذين كتبوا التاريخ فإن هذه الرواية ليست تاريخاً أو رداً على التاريخ، أو تصحيحاً له... هي حكاية مرعبة، لكنها ما كانت لتكون لولا إرادة المنتصرين!!

هل نحن أمام بشر حقيقيين؟ وهل نحن أمام حكايات ووقائع حقيقية؟ في الرد على هذه التساؤلات أجدني مرتاحاً إلى القول: إنني لست معنياً بذلك، فالتاريخ هنا لا قيمة له إلاّ بمقدار امتزاجه بالشخوص الفنية وحكاياتها الصغيرة. والتاريخ هنا يفقد معناه إذا جردناه من تفصيلات الحكايات ودقائق اليومي.. من أحلام الناس العادية والصغيرة.. من فنتازيا الوقائع الروائية، وغرائبية الحدث.. من بنية متكاملة. يضعنا المؤلف منذ البداية أمام بوابة الغرائبية المطلقة لحكايته.. فأم حسن أعلنت أنها ستموت...

"جاءني هاتف في الصباح، وقال لي استعدي."

"أمسكتني من يدي ـ قالت سناء ـ وأخذتني إلى بيتها، فتحت خزانتها الخشبية البنية وأرتني الكفن الحريري الأبيض، وقالت لي أنها ستتحمم قبل أن تنام. أموت طاهرة.." وماتت.

وكما نرى، فإن هذه البداية تبدو رسالة أو شيفرة فنية من المؤلف، تمنح القارئ مفتاحاً مغايراً للمفتاح الذي قد يبدو متوفراً في تصريح المؤلف الذي يعلن فيه أن هذه الرواية لم تكن ممكنة لولا عشرات النساء والرجال في مخيمات برج البراجنة وشاتيلا ومار الياس وعين الحلوة الذين فتحوا له أبواب حكاياتهم وأخذوه ـ أي الروائي ـ في رحلة إلى ذاكراتهم وأحلامهم.. أي أن هذه الرواية لم تعد مجرد حكايات أو بعض مخزون ذاكرات هؤلاء الرجال والنساء، بل إن المؤلف قام بتشكيل هذه المادة الأولية في عمل روائي لا تشكّل الحكايات تلك والأحلام إلاّ عنصراً من عناصره المتعددة، وأهمها على الإطلاق البنية الروائية المتماسكة، وهي بنية جديدة إلى حد كبير. فأنت ترى في البداية برعماً صغيراً، وترقبه وتعيش نموه المتدرج إلى أن يصبح عنقوداً متكاملاً، لكل حبة فيه نكهتها ولونها وروحها.. فثمة حكاية موغلة في طرافتها، وثمة أُخرى موغلة في كوميديتها، وثمة "تراجيديا" تقطر من حبات العنقود كلها بنسب متباينة..

البطل يونس، أو الذي كان بطلاً متعدد الأسماء ـ "في المخيم يسمونك أبو سالم، وفي عين الزيتون أبو إبراهيم، وفي المهمات البعيدة أبو صالح، وفي باب الشمس يونس، وفي دير الأسد الرجل، وفي القطاع الغربي عز الدين" ـ يرقد عاجزاً في انتظار الموت. وبينما يقرر الدكتور أمجد أن يونس لن يصمد أكثر من عدة أيام، يتطوع الدكتور خليل للسهر عليه، والعناية به، آملاً بأن يستعيد وعيه.. ونحن ندرك منذ البداية أن النهاية حتمية، لكن الدكتور أمجد يريدها أسرع مما يجب، ومن دون تقديم أي مساهمة في محاولة الإنقاذ!! ثمة إذاً من هم يتسرعون الخلاص من هذه البطولة الفلسطينية لأسباب خاصة، كالدكتور أمجد الذي يسخر التراجيديا الفلسطينية لخدمته الذاتية. وثمة من هم غير قادرين على التكيف وفق حياة جديدة بلا بطولة، كالدكتور

خليل! وبالحكي، ومن خلاله يقوم المؤلف، بالتدريج، بتجريد يونس من ثياب البطولة الفردية التي ارتداها منذ النكبة، ليتكشف أمامنا رجلاً عادياً يحب ويكره.. شجاعاً وجباناً.. محبوباً ومكروهاً، إلى درجة أن زوجته نهيلة التي عاشت عمراً طويلاً في المؤقت، تصرح له في النهاية أنها لم تعد راغبة فيه، أو لم تعد تريده على صورته التي اعتادتها.. فالواقعية تختلف باختلاف أصحابها.. من واقعية الدكتور أمجد إلى واقعية الدكتور خليل إلى واقعية نهيلة، وأخيراً إلى واقعية المؤلف، أو الواقعية الروائية التي تشير إلى أن تجريد يونس من بطولته الفردية بات أمراً حتمياً وضرورياً.. ذلك بأن الحياة ليست وجهاً واحداً، وليست خطاً مستقيماً. "غريب أمرنا مع هذه الحياة.. نذهب إلى مكان فنجد أنفسنا في مكان آخر. نبحث عن شيء فنجد شيئاً آخر." و"التاريخ يا سيد سالم يخرج من دواخلنا بشراً لا نعرفهم."

يقسم الروائي الزمن قسمين: يمتد الأول منذ النكبة إلى حرب المخيمات؛ ويبدأ الثاني بنهاية تلك الحرب. يتضمن الزمن الأول حكاية "الخروج" الجماعي الجبري، في مواجهة الخروج اليهودي الطوعي من مصر ـ توارتياً ـ للسيطرة على الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً!! والخروج الجماعي يحتمل كل ما هو غرائبي وفنتازي، وكل ما هو قابل للأسطرة من شخوص وحكايات.. فثمة امرأة تضطر إلى قتل طفلها وهي تحاول كتم بكائه في أثناء الهروب من الرصاص! وأم حسن تحمل اللكن على رأسها وتلتقط الأطفال الرضع! ومجنونة الكابري تتخصص بجمع عظام الموتى في كيس على ظهرها، وتحفر لهم قبوراً على التلال! وفوزية التي تزوجت محمد حسن الجمال تعود بكراً حين تراهم يأكلون لحم الجمل الذي عاد وحيداً بعد أن قتل الصهيونيون صاحبه! وشاهينة تمسح الغبار عن صورة ابنها بخرقة مبلولة، وتضع تحتها إناء ملآناً بالزهور والأعشاب الطيبة الرائحة! وعزيز أيوب يحرس الشجرة ويكلم أغصانها! وأبو

عارف البدوي يقود جواميسه السبعة من قانا إلى الخالصة، لأنه يعتقد أنه لا يمكن إخصابها إلاّ هناك!

إضافة إلى حكاية الخروج، فإن الزمن يتضمن أيضاً حال انفجار الثورة وإرهاصاتها الأولى، ثم تنظيمها.. وهنا تبرز بطولة يونس الفردية، وهو هنا لا يمثل نفسه طبعاً.. وهذه البطولة بالضبط هي التي يتمسك بها الدكتور خليل الذي لا يمثل نفسه أيضاً.. "وأراك تمضي وحيداً حاملاً بندقيتك وسط التلال، باحثاً عن قطرة ماء في الصخور المتشققة، كي تصل باب الشمس، حيث نهيلة في انتظارك. أراك تمشي تحت عناقيد الضوء، ولا أشعر بالخوف".

وإذا قسم الزمن في الرواية هكذا، فإن الرواية لا تسير بالطريقة ذاتها.. بل إن الزمن الروائي متداخل ومتشابك، ذلك بأن الحكاية الفلسطينية ذاتها متداخلة ومتشابكة.. وإذا كان الخروج الفلسطيني قابلاً في الرواية لاحتمال ما هو أُسطوري وغرائبي، فإنه قابل، في الوقت ذاته، لكل ما هو توثيقي وتاريخي أيضاً.. لقد استعان الروائي بكل ما هو ضروري، وبكل ما يلزم، لينسج لنا حكايته، وليرينا الحياة من جانب آخر، أو ربما ليكثفها ويسكبها أمامنا ولنا كمزيج غير مألوف، على الرغم من توافر عناصره بين أيدينا وأمام عيوننا.

وبقدر ما تمتاز الرواية به من بساطة، فإنها تنطوي على الكثير من الرموز، أو الدلالات بصورة أدق.. فيونس في غيبوبته وباسمه وحكايته استعارة واضحة للنبي يونس في جوف الحوت ـ الحياة المؤقتة أو الموت المؤقت.

وعزيز أيوب الذي أصر الناس على تسميته (أيوب)، عندما استمر طوال عشرين عاماً يحرس الشجرة ويكلم أغصانها، هو استعارة لحكاية أيوب النبي. وهنالك أيضاً أسماء مثل (إبراهيم) و(خليل) و(عين الزيتون) ذات العلاقة التاريخة بفلسطين.

أخيراً، يمكن القول بثقة إن رواية "باب الشمس" هي أول رواية عربية، تصوغ المأساة الفلسطينية بكل هذا العمق وهذه الشمولية، وبكل هذه الشحنة العظيمة من المشاعر الإنسانية النبيلة.

يوسف ضمره
عمّان/الأردن

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf